

الفصل: الرابع

وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية القرن 19

الأستاذة: حميد الفاتحي

المحاضرة رقم: 5

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2020-2021
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: حميد الفاتحي
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 5

رابعا: العلاقات الاقتصادية بين المغرب وبلاد السودان الغربي

يقول الباحث الاقتصادي المصري سمير أمين إن فهم التاريخ الاقتصادي لـ "العالم العربي" يجب أن نعيد وضعه في إطاره، باعتباره منطقة عبور وملتقى ومفترق مناطق حضارات العالم القديم؛ فهذه "المنطقة العربية" شبه الجافة تفصل بين ثلاثة أقاليم حضارية قائمة على الزراعة: أوروبا، إفريقيا السوداء، وآسيا الخصبة . وقد قامت "المنطقة العربية" بوظائف تجارية ربطت بين العوالم الزراعية التي كانت تجهل بعضها البعض. والتشكيلات الاجتماعية التي ازدهرت على أساسها هذه الحضارات كانت تشكيلات تجارية. والمقصود من ذلك أن الفائض الحاسم للمدن لم يكن يأت، وبشكل رئيسي من الزراعة ولكن من عوائد التجارة التي كان يضمنها لها دورها وسيطا بين الأمم. وبناءً على ذلك يمكن الزعم أن تكامل الموارد الاقتصادية بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء شكل الركيزة الأساسية لخلق علاقات تجارية بين هذه الجهات¹.

وبفعل التباعد الجغرافي وقساوة الطبيعة الصحراوية والأخطار المحدقة بتجار بلاد المغرب أثناء عبور الصحراء، احتاج الأمر إلى التقيد بتقنيات تجارية تمكن من الحصول على الأرباح. وأغلب المصادر الجغرافية التي بين أيدينا تشير لـ "تصدير" المواد المصنعة والغذائية من طرف التجار المغاربة الذين كانوا "يستوردون" الذهب والعبود أساساً².

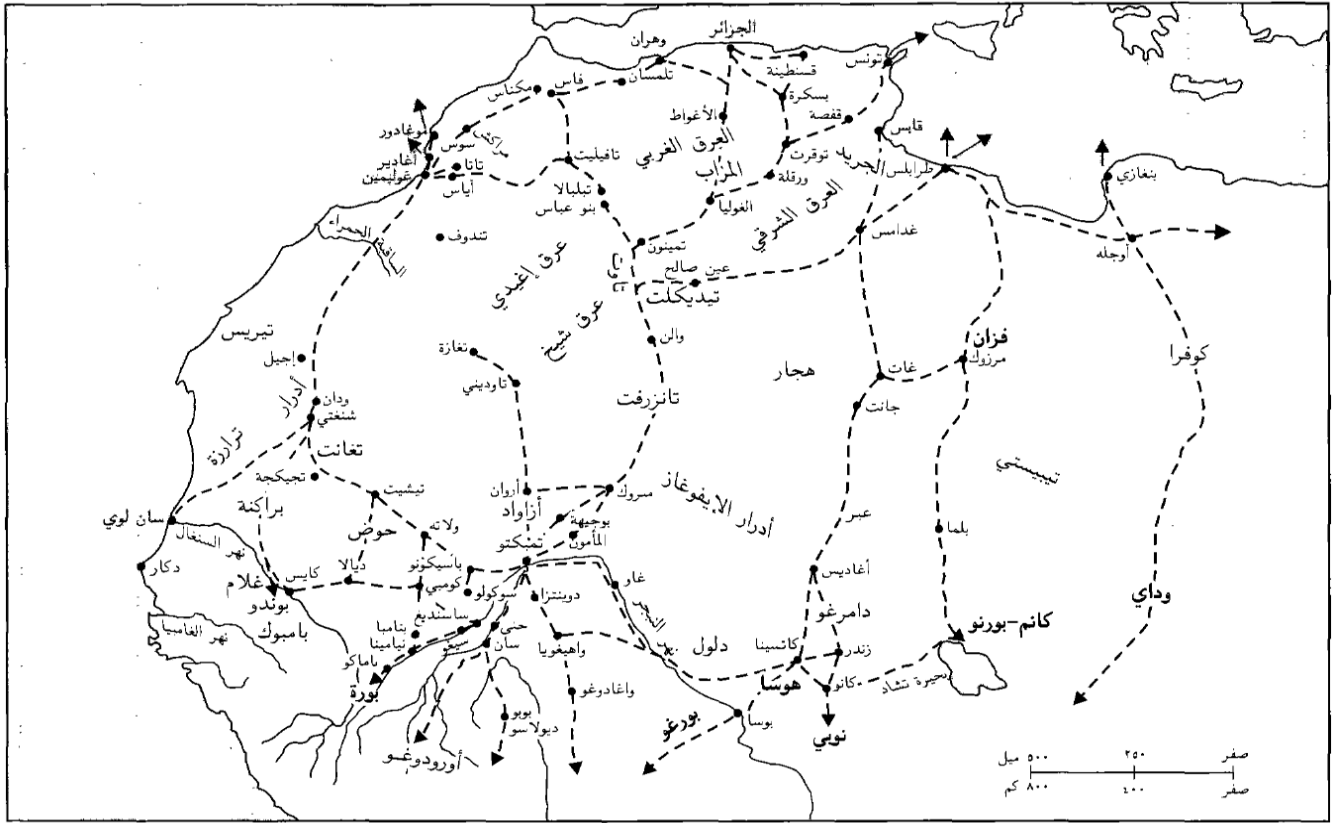
عرفت هذه التجارة أوجها، قبل الاكتشافات الجغرافية البحرية الكبرى، وكانت القوافل التجارية تنطلق من المدن الكبرى في الشمال: فاس، وسجلماسة، ومراكش، ودرعة، وتلمسان، وتونس، والقاهرة... لترتبط بالمدن الواقعة

¹ - سمير أمين، الأمة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص30.

² - Alaoui AbdelAziz, Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI ème – mileu du XIV ème S.), thèse du doctorat de 3ème cycle, Université de Bordeaux III, 1983, t1, p.67.

على مشارف الصحراء أو في عمق السودان كأوداغشت وغانة وولاتة وتبكتو وگاو وتادمكة وأگاديس...
 حيث كانت تستقر جماعات من التجار المغاربة الذين سهرروا على ضمان انسيابية المتاجرة في مواد متنوعة³.

خريطة رقم 3: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر



المصدر: م. أبيتبول، نهاية إمبراطورية الصنغاي، ضمن تاريخ إفريقيا العام، ج 5، ص 346.

³ - Mauny Raymond, Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, IFAN, Dakar, 1961, pp.367-368.

ويمكن حصر أهم المواد المصدرة من المغرب في اتجاه بلاد السودان فيما يلي:

- **الملح:** حيث اشتهرت مملحة أوليل الواقعة بمنطقة الترازرة حاليا غير بعيد عن المحيط الأطلسي. وكذلك مملحة تغازة الواقعة على بعد 160 كلم شمال شرق تاوديني. وكان يتم استخراج الملح على شكل ألواح، ولا يحمل الجمل سوى لوحتين (ما بين 85 و90 كلغ)⁴، وإلى ذلك يشير ابن بطوطة: "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، ويقطعونه قطعاً ويتبايعونه"⁵. وقد اختلف المؤرخون في تقدير أهمية الملح لدى أهل السودان وخصوصاً الموغلين منهم في الغابات الاستوائية لدرجة جعلت قيمته لديهم تساوي قيمة الذهب في المعاملات التجارية، ومنهم من ربط ذلك بالاعتقاد الذي ساد لدى هؤلاء بأن استهلاك الملح المعدني يساعد على حفظ صحة الإنسان والحيوان والاستشفاء من الأمراض القاتلة⁶.
- **النحاس:** وُجِدَ النحاس بشكل أكبر في بلاد المغرب منه بلاد السودان، وكان يتم نقله إلى المدن القريبة، وبعد أن يتم تحويله إلى قضبان وقطع توجه نحو بلاد السودان. وقد استعمل النحاس للعملة، ولصناعة الحلبي، ولأغراض دينية خصوصاً لدى شعوب الغابات الاستوائية في صناعة الأقفعة والأصنام⁷. وبالرغم من اعتماد أهل السودان على استيراد النحاس فقد وجدت بعض المناطق التي تستخرج منها كميات متوسطة بنيورو وغيرها⁸.

⁴ - أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ / 2003م، ج2، ص358. الشريف الإدريسي، زهرة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ / 2002م، ج1، ص17.

Alaoui, Le Maghreb, pp.67-70.

⁵ - محمد بن عبد الله ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ / 1997م، ج4، ص241.

⁶ - Mauny, Tableau, p.323.

⁷ - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م، ص330. Alaoui, Le Maghreb, pp. 71-73.

⁸ - Mauny, Tableau, p.306.

- الفضة: توفر المغرب كذلك على مناجم الفضة حيث كان يتم نقلها إلى السودان على شكل قضبان تُحوَّل إلى حلي وأثاث، لكن لم يكن لها الجاذبية نفسها التي حظي بها النحاس في التجارة العابرة للصحراء، إذ كان لها اعتبار أكبر في المدن المشرفة على الساحل الصحراوي المولعة بالحلي الفضية⁹.

- الأثواب والملابس: عُرفَت بلاد المغرب بالأثواب والملابس وامتد تأثيرها في هذا الجانب إلى بلاد السودان بفعل تنامي حركة التحضر وتزايد الإقبال على المواد النسيجية. وأهم الألبسة التي أقبل عليها السودان: الأردنية، والأكسية، وأغطية الرأس والصوف الخام التي يتم تحويلها محليا لزرابي. وبحكم المنشأ البعيد للسلع الحريرية (الأندلس، مصر، الشام)، كان المغرب وسيطا، وبالتالي كانت أثمان هذه البضاعة مرتفعة¹⁰. وقد وجهت بعض الأثواب الصوفية المنسوجة بسجلماسة في اتجاه الجنوب¹¹. وبخلاف الملح والنحاس اللذين عرفا ذيوعا إلى حدود الغابات الاستوائية، فإن المنسوجات كانت موجهة حصرا إلى المراكز الحضرية حيث كان يستقر الأمراء والحاشية. وبالمقابل استمر سكان البوادي والغابات على وفائهم لعاداتهم وتقاليدهم البدائية حيث "كان الناس يمشون عراة أو شبه عراة أو اتخذوا من جلود الحيوانات لبوسا"¹².

- الأغذية والحيوانات: بفعل الجفاف المتزايد وازدياد الكثافة السكانية أقبلت مناطق الواحات على استهلاك عدد من الأغذية الوافدة من مدن الشمال¹³. وشكلت جلود حيوان اللمط المستعملة درقا في الحروب أهم السلع المطلوبة على امتداد العصر الوسيط¹⁴. كما أقبل حكام السودان على الخيول البربرية

⁹ - Alaoui, Le Maghreb, pp.75-76.

¹⁰ - Ibid, pp.76-81.

¹¹ - البكري، البكري، المسالك، ج2، ص331.

¹² - Alaoui, Le Maghreb, pp.76-81.

¹³ - Ibid, p.81.

¹⁴ - البكري، المسالك، ج2، ص358. أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص41.

التي كانت أحد أهم مكونات فرق الخيالة العسكرية للإغارة على أعدائهم. وكان يتم تبادل الخيول في مقابل العبيد بصفة تكاد تكون حصرية، واستمرت هذه الممارسات إلى حدود القرن التاسع عشر ومجئ الاحتلال الأوروبي¹⁵.

- استورد أهل السودان كذلك بعض المواد كالأسلحة، والمرجان، والعطور، والأخشاب، والأواني، والحلي، والأحجار، والكتب¹⁶.

أما واردات بلاد المغرب من بلاد السودان فقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالصادرات، حيث كان التجار يقومون بهذه العمليات عبر وساطات متعددة: مجموعات تنطلق من خليج غينيا في اتجاه مناطق استخراج الذهب والكولا شمال الغابات الاستوائية، ثم مجموعات أخرى تنطلق من المدن السودانية للتوغل جنوبا في اتجاه الغابات الاستوائية أو شمالا في اتجاه ممالح تغازة وأوليل...¹⁷، وبذلك لم يكن مسموحا للمغاربة بالتواصل مباشرة مع مصادر السلع الأساسية كالذهب والعبيد، وإنما عن طريق وسطاء من أهل السودان.

ويمكن إجمال أهم السلع التي تأخذ الطريق باتجاه الشمال فيما يلي:

- **الذهب:** تعتبر تجارة الذهب حجر الزاوية في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية، وقد حيكت حوله مجموعة من الحكايات الطافحة بالخيال كما يبدو ذلك من خلال المصادر¹⁸، وتفاوتت الأبحاث والدراسات

¹⁵ - Mauny, Tableau, p.364.

¹⁶ - Ibid. p.364,373.

¹⁷ - Ibid, p.364.

¹⁸ - راجع مثلا أبا حامد الغرناطي حيث يشير إلى أن الذهب ينبت في أرض بلاد السودان كبقية النباتات. أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى، 1413 هـ / 1993 م، صص 38-39.

المعاصرة في تقدير حجم هذه التجارة ومدى تأثيرها على قوة أو ضعف الدول المتعاقبة على حكم المغرب¹⁹.

وكانت تجارة الذهب المسبوك أو التبر (مسحوق الذهب) تنطلق من المناطق المنتجة وإلى حدود المدن السودانية الواقعة على طرف الصحراء حيث كان يتلقاها التجار الوافدين بالملح من الشمال. وكان الحصول على الذهب يتم بطريقتين؛ إما عن طريق المبادلة الصامتة أو عن طريق عمليات البيع والشراء التي يقوم بها وسطاء متخصصون²⁰. واشتهرت عدد من المدن باعتبارها محطات لنقل الذهب وتصنيعه كبرنو وأوداغشت وتادمكة وسجلماسة وورغلة، ولقي ذهب السودان الغربي رواجا وإقبالا نظرا لجودة عياره²¹.

- **العبيد:** إلى جانب الذهب أثارت تجارة العبيد بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء جدلا بين المؤرخين حول حجم هذه التجارة وتحميل المغرب مسؤولية الاستبعاد في إفريقيا. والواقع، إن تجارة العبيد كانت مرتبطة بالحروب المستمرة بين الشعوب الإفريقية نفسها وحالة الاسترقاق التي كانت سائدة فيما بين هذه الشعوب. وكانت مجموعات من هؤلاء تُنقل إلى أسواق الشمال لتُعرضَ على التجار المغاربة في جني، وتنبكتو، وگااو، وكانو ثم ينقلون إلى مدن المغرب والأندلس ومصر...²². واشتغلت أعداد من العبيد في الجيوش وفي بلاطات الأمراء وفي بيوت النخب الاجتماعية وفي الفلاحة على نطاق محدود.

¹⁹ - Cahen Claude, L'or du Soudan avant les Almoravides, mythe ou réalité ?. In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 66, n°242-243, 1er et 2e trimestres 1979, pp. 169-175.

²⁰ - Mauny, Tableau, pp.362-363.

²¹ - Ibid, p.376.

²² - Ibidem.

- التوابل والعاج: كانت تجارة العاج بمقادير ضئيلة ولا يمكن الحديث عن تجارة موسعة لهذا النوع من السلع التي كانت تصل إلى شمال إفريقيا. كما أن معلوماتنا حول تجارة التوابل تظل شحيحة، ويمكن القول إن هذه التجارة لم تعرف رواجاً إلا في عهد مملكة مالي فيما بين القرنين السادس والثامن للهجرة / الثاني عشر والرابع عشر للميلاد²³.

الكولا: ظلت الغابات الاستوائية الإفريقية مصدراً للكولا وتمكنت قبائل الديولا من احتكار هذه التجارة ومبادلتها مع التجار الحاملين للملح²⁴.

وبالنتيجة، تعددت أوجه الترابط الاقتصادي بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وظلت هذه العلاقات ذات أهمية بالنسبة لاقتصاد المغرب إلى حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حين انفتح المغرب على تجارة المحيط الأطلسي وعلى أوروبا. ومنذ سنة 1860م بدأت أفواج من التجار المغاربة بالاستقرار في مدينة سان لوي Saint Louis بالسنغال عاصمة "إفريقيا الغربية الفرنسية" Afrique Occidentale Française، وتعتبر هذه الهجرة ثمرة قرون من التواصل التجاري والمالي والبشري. وكان لأهل فاس حضور كبير في السنغال قبل أن تلحق بهم مجموعات من أهل مراكش وگلميم، وتافيلالت²⁵. واليوم يعمل المغرب على إعادة ربط علاقات اقتصادية متجددة مع إفريقيا عن طريق إبرام شراكات تجارية تراعي مصالح الجانبين "رابح-رابح Win-Win" وتشمل ميادين الفلاحة والصناعة والتجارة والسياحة والخدمات.

²³ - Ibid, p.362.

²⁴ - Ibid, p.366.

²⁵ - Nazarena Lanza, Liens et échanges entre le Maroc et l'Afrique Subsaharienne: Éléments pour une perspective historique, Karthala, Paris, 2011, p.9.